سورة البقرة

المحاضرة الخامسة عشر

الآيات من 79 : 83

إن الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وبعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار...

" فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ (79) "

الآيات دلت على ذم بني إسرائيل لأفعالهم الشنيعة فقال تعالى:

(فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ): الويل لغة هو: الهلاك والدمار.

وشرعًا للعلماء فيه توجهات:

- قال البعض: هو صديد في أصل جهنم
- وقال آخرون: وادٍ في جهنم

- ولكن لايوجد على المعنى الشرعي دليل، لذلك سنكتفي بالمعنى اللغوي.

- في الآية وعيد شديد من الله عز وجل لهؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، وذُكرت كلمة (بِأَيْدِيهِمْ) تأكيدًا من الله تعالى على صفاتهم الخسيسة، فأراد تبيين أنّ هذه الكتابة مباشَرَة من أنفسهم وبأيديهم زورًا.

سؤال: هل التوراة هي الألواح؟

الجواب: للعلماء قولان في هذه المسألة:-

1- القول الأول: التوراة غير الألواح.

والدليل ظاهر الآيات؛ بأنّ الله تعالى ذكر التوراة في آيات والألواح في آيات أخرى.

2- القول الثاني: الألواح هي التوراة، والأدلة على ذلك:

أ- لقوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (145)}(الأعراف)

(مِن كُلِّ شَيْءٍ) (كل) من ألفاظ العموم، ففيها دليل على أن كل شيء كُتب في الألواح يدخل فيها التوراة.

ب - حديث عن أبي هريرة: (عن النبيﷺ قال احْتَجَّ آدَمُ ومُوسَى، فقالَ له مُوسَى: يا آدَمُ أنْتَ أبُونا خَيَّبْتَنا وأَخْرَجْتَنا مِنَ الجَنَّةِ، قالَ له آدَمُ: يا مُوسَى اصْطَفاكَ اللَّهُ بكَلامِهِ، وخَطَّ لكَ بيَدِهِ، أتَلُومُنِي علَى أمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَنِي بأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثَلاثًا). [صحيح البخاري6614]

أقوى مظاهر الاصطفاء لموسى عليه السلام- بعد أولي العزم من الرسل- أن الله تعالى خَطَّ له بيده.

* فدلّ أن التوراة هي الألواح، والله أعلى وأعلم.

(ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ)

أي شيء في الدنيا هو قليل الثمن من مال ورئاسة إلى غير ذلك؛ فالدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، ولكن العاقل هو الذي يدرك هذا.

(فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ)

وبَّخ الله تعالى بني إسرائيل بقول (الويل) ثلاث مرات تأكيدًا للتقريع والتوبيخ، ثم ذكر الفعل مجردًا (يَكْسِبُونَ) لدلالته على الخبث بقرينة المقام لِما تقدَّم.

الآية بها إشارة لفضل القرآن وإعجازه، وعدم القدرة على الدسّ فيه أو الحذف منه، فهو فضل من الله تعالى وشرف عظيم لهذه الأمة.

"وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) "

تبجُّح وتجرؤ على الله تعالى فجمعوا بين الإساءة والأمن من مكر الله، جمعوا كل الصفات الذميمة والأفعال الدنيئة من الإساءة وقتل الأنبياء وتكفير الرسل والتعالي والتكبّر وغيرها ومع ذلك يقولون(لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً) !!

(إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ) وكل معدود منقضٍ..

حكموا على أنفسهم رغم جرائمهم بمجرد مسّ النار لأيام معدودة!

والنار غيب ولم يرها أحد، والخبر عن غيب لا يُعلم إلا بوحي !

فهل نزل جبريل بالوحي عليهم؟!! أو هل أخذوا على الله تعالى ميثاقًا لدخول الجنة؟!!

أم أنهم قد كذبوا على الله عز وجل !!

** كثير من المسلمين الآن تلَبَّس بهذه الصفات.. الإساءة والعصيان والإعراض وفي الوقت نفسه آمن أمان كامل من مكر الله عز وجل ومن عذابه ! كيف تأمن وتطمئن وأنت مقيم على المعاصي؟!

للأسف كل هذا ناتج عن الجهل بالدين، وبأسماء الله وصفاته وغرور بالنفس.

" بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (81) "

(بَلَىٰٓ) حرف إضراب عن ما قبله وإثبات لما بعده.

وتأتي (بلى) في حالتين (أشهر حالتين):

1- إما جوابًا لاستفهام فيه نفي (تؤكّد ما بعدها وتنفي ما قبلها)

قال تعالى: { أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ...(172)} (الأعراف) فسبقت باستفهام فيه نفي.

2- أو في سياق مايختص (بنفي) فتبطله (فلا يوجد هنا استفهام)

قال تعالى: {زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ..(7)}(التغابن) ؛ فجملة(زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ) نفي ولكن دون استفهام فتأتي (بلى) لتثبت مابعدها وتنفي ماقبلها.

☆ متى يكون الجواب بـ(بلى) و(نعم)؟

(بلى) : 1- تكون جوابًا لاستفهام فيه نفي.

2- أو جوابًا لنفي وإبطال ما قبله وإثبات لِما بعده.

(نعم) : لا تكون إلا جوابًا لاستفهام ليس فيه نفي

مثال: أكلتَ اليوم؟ الجواب:(نعم)

☆ ما الفرق بين (بل) و (بلى)؟

(بلى) و(بل) شيء واحد، ولكن زِيدت (الياء) ليصح الوقوف عليها.

***عند الوقف في الآيات يصح الوقف عند(بلى) ولا يصح الوقف عند (بل).**

(سَيِّئَةٌ) :

نكرة في سياق الشرط فَتَعُمّ الشرك وما دونه.

★ قاعدة :

(نكرة في سياق الشرط أو الاستفهام أو النفي أو النهي تعُم)

أي: إذا دخلت على نَص (فالحكم عام) على جميع أفراده.

شبهات الخوارج في هذه الآية:-

(بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

كفَّر الخوارج (كل صاحب سيئة) ومن ثَمَّ مرتكب الكبيرة - وَفْقًا لتلك القاعدة- وأنه مخلد في النار !

** دائمًا صاحب البدعة يتبع لَيّ النص أو بتره وجزِّه؛ وهذا ضلال مبين وسيُحاسب عليه..

الرد:

(أَحَٰطَتۡ): حوَّط المكان أي: لم يترك له منفذًا

أي الخطايا أحاطت به من كل جانب ولا منفذ للإيمان؛ وهذا ينطبق على الكافر وليس المسلم؛ فأصحاب النار ملازمين لها لا ينفكون عنها أبدًا.

★ فلا يُقال هذا على (المسلم) من أصحاب النار مطلقًا، لأن عنده أصل الإيمان؛ فلا يخرج من دائرة الإيمان.

- فلا يصح تكفير مرتكب الكبيرة من المسلمين، نعم هوعلى خطرعظيم..وينبغي تحذيره لكن لانُكَفِّره.

● أما منهج أهل السنة والجماعة:

فكل مَن مات على التوحيد في مشيئة الله إما أن يعفو عنه ويدخل الجنة ابتداءً، وإما أن أنه يقضي عذابه مدة في النار ثم يخرج منها ويدخل الجنة ولكن لا يُخلّد في النار.

* سؤال: لماذا في الآية (وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ) ؟

الجواب: لأنه لايبقى مع (الشرك) حسنة مطلقًا؛ قال تعالى:

{وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (65)}(الزمر):

فإذا كان الخطاب للنبيﷺ وهو ما له من المنزلة العظيمة عند الله عز وجل؛ فالأمة أولى بهذا التوجيه.

★استطراد★

الله يعلم أن النبيﷺ لن يُشرك، ولكن لماذا وجّه الله خطابه له؟

قال العلماء: تعليق الحكم بالشرط لا يَلزَم منه وقوع المشروط؛

قال تعالى:{ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ(81)}(الزخرف)

استحالة أن يتخذ الله سبحانه ولدًا، ولكن مثل هذه المناظرة في القرآن لإثبات بالحجة والبرهان الساطع أننا على الحق.

" وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (82) "

– يذكر الله سبحانه وتعالى دائمًا آيات الوعد وآيات الوعيد حتى يكون المؤمن في اعتدال وتوازن من أمره، وبين الخوف والرجاء، فبعدما ذكر الله في الآية السابقة آيات الوعيد، ذكر في هذه الآية الوعد الذي وعده الله الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة.

- وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن بين خوف ورجاء؛ يفعل الطاعة مع عدم الأمن من مكر الله، **ومن علامات أمن مكر الله:** أن يكون متلبِّسًا بالمعصية ومستهينًا بها ويظل مُصِرًّا مستمرا عليها، فيظل كذلك حتى يموت.

- وكذلك لا ينبغي لمن أسرف على نفسه بالذنوب أن يقنط من رحمة الله.

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)

الإيمان لغة: أصله التصديق.

الإيمان شرعًا: قول وعمل.

شبهة المرجئة (فرقة ضالة) تقول: بأن الواو في الآية (للمغايرة)؛ أي أنَّ عطْف الأعمال الصالحة على الإيمان يدلُّ على المغايرة !! بمعنى أن الإيمان شيء والعمل شيء آخر، فالعمل ليس لزامًا للإيمان ولا يدخل فيه !!

الرد: (الواو) أيضًا تقتضي التشريك في الحكم، وعطف الخاص على العام؛ ففي هذه الآية عطف العمل الصالح على الإيمان لبيان أهميَّة الخاص وهو العمل الصالح.

- كما أن هناك نصوص كثيرة أخرى تدل على أن الإيمان قول وعمل لكن لايتسع المقام لذكرها الآن.

أما عقيدة أهل السنة والجماعة:

فالإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولم يختلف منهم أحد في هذا أبدا.

" وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ (83) "

(وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ)

الآية إخبار في معنى النهي، وهو أبلغ من النهي الصريح

كما في قوله تعالى في سورة البقرة {وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞ}

إخبار في معنى النهي الشديد (أي إياك أن يضر كاتب أو شهيد).

- وفي هذه الآية على الرغم من أن الله عز وجل أخذ عليهم المواثيق (لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ..) إلا أنهم تولّوا وأعرضوا قصدًا وعمدًا.

(لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ) بدأ الله عز وجل بأعظم الحقوق وأعلاها وهي(التوحيد)؛عبادة الله وحده لا شريك له والتي من أجلها أنزل الرسل، والتي بضياعها ضاع كل شيء.

(وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا) يدل على عِظم مقام البر؛ فقد ذُكر بعد التوحيد، فينبغي الانتباه لحق الوالدين:

- عن أبي هريرة: جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، مَن أحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قالَ: أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أبُوكَ [صحيح البخاري 5971]

(وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ) القربى: القرابة من الرحم والصُلب.

فأخذ عليهم الميثاق بعدما يعبدون الله ولايشركون به شيئًا، أن يحسنوا إلى الوالدين والأقارب.

وعُطفت (القربى)على (الوالدين) لبيان أهمية صلة الأرحام.

- **لايصح بأي حال أن يقطع مسلم رحمه وإن أساءوا إليه،**

- عن أبي هريرة أنَّ رَجُلًا قالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ لي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إليهِم وَيُسِيؤُونَ إلَيَّ، وَأَحْلُمُ عنْهمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقالَ: لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ، فَكَأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ وَلَا يَزَالُ معكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عليهم ما دُمْتَ علَى ذلكَ. [صحيح مسلم2558]

(وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ)

- (اليتامى) جمع اليتيم؛ واليتيم هو مَن مات أبوه دون سن البلوغ فلا يستطيع التكسُّب.

- (والمساكين) الذين لا يملكون النفقة على أنفسهم.

(وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا) بالكلمة الطيبة ولين الجانب وإدخال السرور عليهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحسنى.

(حُسۡنٗا) قال الحسن البصري الحُسْن من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسنا كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

- عن أبو ذر الغفاري: (قال رسول اللهﷺ لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ) [صحيح مسلم2626]

- أمر الله عز وجل بالإحسان الفعلي (وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ)، ثم أمر بالإحسان القولي (وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا) فجمع بذلك بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي.

ثم أكد الأمر بما يعين على ذلك وهو (وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ):

(وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ) الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى

(وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ) الإحسان إلى خلقه

- وكل هذه أوامر كانت لبني إسرائيل فتركوها وراء ظهورهم وأعرضوا، فكانت العقوبة والنكال الشديد عليهم بخلودهم في النار.

لطيفة

يقول ابن القيم:

(قال قائل: أراني إذا دعيت باسمي دون لقبي شق ذلك علي بخلاف السلف فإنهم كانوا يدعون بأسمائهم، فقيل له: هذا لمخالفة العادات لأن أنس النفوس بالعادة طبيعة ثابتة ولأن الاسم عن السلف لم يكن عندهم دالا على قلة رتبة المدعو، واليوم صارت المنازل في القلوب تعلم بإمارة الاستدعاء، فإذا قصر دل على تقصير رتبته، فيقع السخط لما وراء الاستدعاء، فلما صارت المخاطبات موازين المقادير شق على المحطوط من رتبته قوة كما يشق عليه فعلا).